جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كليّة التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية- الدراسات العليا

نظريَّة الاتِّصال البلاغيّ في الدرس العربي

أطروحة مُقدَّمة
إلى مجلس كُليّة التربية للعلوم الإنسانيّة في جامعة ديالى
وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه
في اللغة العربية وآدابها (تخصّص/الأدب)

من الطالبة
إسراء عبد الخالق جاسم

بإشراف
الأستاذ الدكتور
وسن عبد المنعم ياسين الزبيدي

١٤٤٤هـ ٢٠٢٣م

الفصل الأول:
الاتِّصال البلاغيّ عند العرب

المبحث الأول: جـــذور نظـــرية الاتِّـــصال البلاغـــي عـــند العـرب
المبحث الثاني: الاتِّصال البلاغي في ضوء المشاريع البلاغية الكبرى (البيان، الفصاحة، النَّظم)
المبحث الثالث: البلاغة والاتِّـــصال في الـــدراسات البلاغـــية المعاصرة

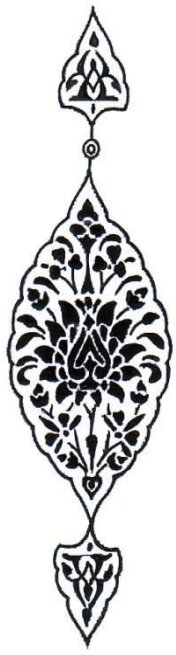

المبحث الأول: جذور نظرية الاتِّصال البلاغي عند العرب

تسعى القراءة إلى تتبّع الجذور اللسانية التي ظهرت في مسائل تراثية عدة لتكون بمثابة العوامل المؤسسة للنظرية في الدرس العربي، ومن هذه العوامل: مفهوم المواضعة اللغوية ومتعلقاتها كقضية الدال والمدلول ودورها في صياغة الحدث التواصلي، وقضية اعتباطية العلامة اللغوية التي تؤدي دوراً كبيراً في تعزيز الوظيفة التواصلية للغة، وعلاقة البلاغة بعلم اللغة، ومن ثم تقصي أثر هذه المعطيات في بلورة مفهوم الاتِّصال البلاغيّ وأنواعه.

أولاً: أهمية المواضعة اللغوية في سيرورة الاتِّصال اللساني

ارتبطت عملية البحث في نشأة اللغة بنظرية المواضعة اللغوية، وقد جرى في تعريفاتها التأكيد على فكرة الاتفاق الاجتماعي؛ فاللغة هي مجموعة ((معاني كلية مجردة متحدة متفقة))[١]، أي أنَّ نشأتها ((رهينة انبناء المواضعة، وحدوث المواضعة رهين أسبقية "لغة ما" بمعنى أسبقية نظام إبلاغي))[٢].

إن قضية المواضعة باب متشعب الأصول والضوابط بحثه العرب القدماء بحثاً مستفيضاً، فأرجعوه إلى مفاهيم كثيرة كالنيّابة، والإجراء، والتواضع، والتواطؤ، والاتفاق، والاصطلاح[٣]، ((غير أن مفهوم الاصطلاح يتسع في المنظومة اللسانية إلى كل ما له دلالة من خط وإشارة وعقد ونصبة وغيرها من الأنظمة العلامية العامة، وتشترك جميعها مع الظاهرة اللغوية في أنها تستند إلى " ترامز" يقوم مقام التسمية الاصطلاحية النائبة عن الأشياء وحقائق الموجودات، ومفهوم النيابة هذا في

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدِّي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان، ط٣، ٢٠٠٩م: ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٤٤.

ترسيخ متصور المواضعة هو الذي ولّد فكرة تبادل الوجود بين النظام الإبلاغي والحقائق التي هو دليل عليها، فاللغة في حد ذاتها موجود قائم بالوضع مقام غيره))[١].

لقد التفت العرب القدماء إلى هذه المسائل فبحثوا في الإلهام والاصطلاح اللغوي والأثر الفاعل الذي تتركه اللغة في إقامة التواصل والتفاهم بين الناس وأولهم الجاحظ الذي جمع بين الرأيين؛ إذ اللغة عنده ((إلهام واصطلاح في الوقت نفسه فهو يوحد بين الرأيين في ذلك. ويرى الجاحظ أن اللغة في أولها إلهام من الله للناس جميعاً ولكن مكّن الله الناس من الاشتقاق منها والتصرف بها. لذلك يكثر الناس من ذكر الاستعمال ومن استبدال كلمة موضع كلمة، وذكر سقوط كلمات جاهلية من الاستعمال، ولو كانت اللغة إلهاما لما تمكّنا من الاستبدال ولا الاشتقاق، ولا تمكّنا من وضع كلمات جديدة))[٢]. يرى مازن الوعر إن مقولات الجاحظ في قضية نشأة اللغة عن الإلهام والفطرة تقترب من البحوث اللسانية الحديثة في مفهوم الفطرة الغريزية التي تعتقد بأن تعلم اللغة مُهيأة في دماغ الطفل من الناحية البيولوجية والفيزيولوجية فـ((البنية الدماغية عند الأطفال هي بنية بيولوجية مبرمجة ومكمبتة بسلسلة من العلاقات التي هي غاية في التجريد الرياضي. إن هذه البنية الدماغية قادرة على التفاعل مع المواد والأنظمة اللغوية المقدمة للطفل بغض النظر عن نوعية هذه المواد اللغوية التي يمكن أن تكون يابانية أو إنكليزية أو فرنسية أو صينية أو عربية))[٣].

---

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية: ١٤٤.

(٢) قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٨م: ٥٥٦، وينظر: الحيوان: ١/ ٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ٥٥٧.

وقد أدى به التقريب بين وجهات النظر إلى وضع معادلة توضّح مدى إنسجام التفكير الجاحظي مع التفكير اللساني الغربي وهي: أنّ رؤية الجاحظ الثنائية للغة بأنها إلهام وغريزة وفطرة من الله سبحانه وتعالى، ووضع اصطلاحي متفق عليه اجتماعياً نتيجة لحاجتهم إليه، ومن ثمّ فإنّ هذا الاتفاق يصبح بمثابة النظام الذي يسير على وفق مجموعة من القواعد والاشتقاقات التي تنتظم في شكل ودلالة، تتفق مع مراحل نشوء اللغة في التفكير الغربي الذي يرى أيضا بأن اللغة إلهام، وغريزة وفطرة طبيعية، مبرمجة لسانياً نتيجة الاستعداد البيولوجي لدى الطفل، وبنية تنظيمية وضعية متفق عليها اجتماعياً تشكل قواعد التوليد والتحويل أساساً في انتظام جملها اللغوية(١).

إن الإلهام عند الجاحظ لا يتعلق بنشأة اللغة نفسها وإنما يتعلق بالمتكلمين بها، في حين إن مراحل النشوء والتطور اللغوي هي التي تتعلق بقانون الوضع الاجتماعي ((وذلك لأن المتكلم يستطيع أن يولد القواعد الصحيحة في ذهنه والتي تساعده على التعميم اللغوي، ثم أن المتكلم يستطيع أن يحذف بعض التركيبات اللغوية التي هي ليست صحيحة في عرف اللغة والمجتمع ويمكن أن يشتق ويغيّر ويبدّل في المادة اللغوية المقدمة إليه حتى تصبح اللغة عنده نوعاً من الحاجة الاجتماعية تتسع وتمتد بقدر حاجته إليها وتتقلص وتبقى في حدودها الأولية بمقدار استغنائه عنها))(٢)، ودلالة ذلك تصريحه بأن تعدد اللغات له أثر كبير في صعوبة التواصل، ومن ثم فإن الكلام في اللغة الواحدة يأتي على درجات متباينة من الاستعمال اللغوي فلما كانت اللغات ((تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها وعلى قدر مخارجها وخفتها وتسلسلها وثقلها وتعقدها في أنفسها [...] والجملة أن من

(١) ينظر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث: ٥٥٨-٥٥٩.
(٢) المصدر نفسه: ٥٥٩.

أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك، وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة بكون البلوغ فيها والتقصير عنها))[١].

الوضع – إذن– هو خطوة أساسية في نشأة اللغة واستعمالها (الكلام)، وقد بحث ابن سنان الخفاجي في هذه القضية فذهب إلى أن ((الكلام إنما يفيد بالمواضعة وليس لها تأثير في كونه كلاماً كما لا تأثير لها في كونه صوتاً[...] والكلام يتعلق بالمعاني والفوائد بالمواضعة لا لشيء من أحواله وهو قبل المواضعة إذ لا اختصاص له))[٢]، فالكلام من جهة الإفادة فقط هو الكلام المتفق عليه اجتماعياً، أما من جهة المعاني فهو كلام مفيد أيضاً، ولكنه يتفوق بتأديته لدلالة معينة، وكأن الخفاجي أراد أن يقول إنّ الكلام المفيد هو ما كان مستعملاً لإقامة التواصل والتفاهم بين الناس على وفق قانون المواضعة، أما النوع الآخر فهو الكلام الذي يتعلق بمعنى ودلالة مخصوصة في الوقت الذي كان فيه النوع الأول لا اختصاص له، وكأن هذا التمييز أشبه بالفرق بين المواضعة في الكلام الاعتيادي: ((المواضعة المتصلة بدلالة الألفاظ وصيغ الترتيب يبلغ أقصاه في الخطاب العادي الذي يهدف إلى مجرد الإبلاغ))[٣]، وفي الكلام الأدبي الإبداعي التي يخف التقيّد بها ((كلما ولج الإنسان باللغة حَقل الإبداع والخلق الأدبي))[٤].

كما تمكّن عبد القاهر الجرجاني من بلورة هذه الفكرة في نظرية (النَّظم) عندما ميّز بين نظم الحروف على وفق قانون الوضع، ونظم الكلم الذي يتعلق بالدلالة

---

(١) الحيوان، الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٦٥م: ٢/٢٨٩-٢٩٠.

(٢) سِرّ الفصاحة: ٤٢.

(٣) التفكير اللساني في الحضارة العربية: ١٥٧.

(٤) الصفحة نفسها.

والمعنى المترتب في نفس المتكلم: ((وذلك إن "نظم الحروف" هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضًى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما "نظم الكلم" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج[...] حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضِع، علَّةٌ تقتضي كونه هناك، وحتى لو وُضِع في مكان غيره لم يصلح))[1]، ومن هنا انتقلت القضية إلى مستوى آخر من التمييز الثنائي حيث قضية اعتباطية العلامة اللغوية في قانون الوضع بين الدال والمدلول في نظم الحروف (اللغة)، وسببية العلاقة بينهما في نظم الكلم (الكلام).

وتكاد تكون تطبيقات البلاغيين تطبيقات لسانية دلالية تتجاوز مراحل النشأة السيميولوجية للسانيات، فالعناية عندهم انصبت على دراسة خصوصية نظم الكلم وقواعد الاختيار والتأليف بعد أن استقرت الدوال ومدلولاتها في الأعراف اللغوية للمجموعة اللسانية الواحدة [2]. وعلى الرغم من هيمنة الجانب اللساني الدلالي على مفاصل التفكير البلاغي، فإن ذلك لا يعني عدم تنبه أصحابه إلى الجانب السيميولوجي في إقامة الاتِّصال اللساني، فالبيان بحسب محمد عابد الجابري كان قد استعمل في مجاله التداولي اللغوي الأول للدلالة على التبليغ والإقناع، و((يتعلق

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م: ٤٩.

(٢) ينظر: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي –دراسة –، منقور عبد الجليل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م: ١٤٩.

الأمر أساساً بقدرة الإنسان الذي يرى الأشياء ويتأملها ويتوسّمها »[١]، فالتأمل والمشاهدة والاعتبار هي الأساس الذي بنيت عليه أساسيات الاتِّصال اللساني عند العرب. ولما كانت المواضعة في إحدى تعريفاتها تشير إلى ما وقع « على المشاهدات وما جرى مجراها لأن الأصل فيها الإشارة [...] التكلم بلغة مخصوصة أن نعقل معاني الأوصاف والأسماء فيها وفي الشاهد ثم ننظر، فما حصلت فيه تلك الفائدة يجري عليه الاسم في الغائب»[٢]، فإن جذورها بدأت بداية سيميائية عن طريق الاعتبار: «بيان الأشياء بذواتها [...] وإنما تعبر هذه الأشياء لمن اعتبر بها، وتتبين لمن طلب البيان منها، »[٣] والاعتقاد: « إن الأشياء إذا تبيّنت بذواتها للعقول وترجمت عن معانيها للقلوب، صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة وعلما مركوزين في نفسه»[٤]، وبوساطة حصول الاعتبار عبرَ التأمل والمشاهدة والعلم بمعاني الأشياء والاعتقاد يبدأ التحول العلامي من السيمياء إلى اللسان، فيحصل البيان باللفظ أو بالعبارة إذ تصبح الدلالة على المرجع لفظية خطية[٥]. إن أبرز ما يمكن استنتاجه بعد أن تتبعنا الجذور اللسانية في التفكير البلاغي عند العرب، يتلخص في كون اللغة وهي الأساس الذي استندت عليه مباحث البلاغة العربية تساوي الإبلاغ، والإبلاغ قائم بدوره على الدلالة والدلالة تقتضي المواضعة[٦]، إذ تمثل هذه الرؤية الانطلاقة الأساسية التي تنطلق منها عملية التأسيس لنظرية

---

(١) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٩، ٢٠٠٩م: ١٨.

(٢) التفكير اللساني في الحضارة العربية: ١٥٣.

(٣) البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تح: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، مصر، ١٩٦٩م: ٥٦- ٥٧- ٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ٨٦.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٥٦-٥٧- ٥٨.

(٦) ينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية: ١٥٦.

الاتِّصال البلاغيّ، إذ تتبلور علاقة البلاغة بعلم اللغة لتكون بمثابة الوسيط الذي يجمع بين البلاغة والاتِّصال اللساني في منظومة واحدة.

ثانياً: البلاغة وعلم اللغة

ارتبطت البلاغة العربية منذ نشأتها بالدرس اللغوي، فاللغة هي الأساس الذي بنيت من خلاله حدودها التي تُعرف بها كيفية التركيب من حيث الفصاحة والبلاغة ونحوها[١]، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذه الجزئية عندما أعلن أن المتكلم الذي يمتلك ناصية البيان، والفصاحة، والبلاغة، والبراعة هو من كان متمكناً من علم اللغة[٢]، وقد جاء مفهوم النظم ليثبت دعائم هذا الارتباط الذي يعرفه عبد القاهر الجرجاني بقوله: ((اعلم أن ليس ((النَّظْم)) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه ((علم النحو))، وتعمل على قوانينه وأصوله))[٣]، أي إن البلاغة عنده تتعلق بكيفية استعمال اللغة.

ولأنها تضم الأساليب البلاغية التي يستعملها المتكلم المتمكن من خصائص لغته فقد يؤدي بنا هذا إلى الاعتقاد بأن البلاغة عند القدماء كانت تسعى إلى دراسة الجزء الاستعمالي من اللغة ((والبلاغة هي من علوم اللسان وموضوعها الأساسي هو دراسة الكلام كخطاب أي بالنظر في التلازم القائم بين طرق التعبير وبين الأغراض))[٤] المحـدَّدة في ضوء مبدأ الإفادة الذي يسهـم في الكـشف عـن الفروق الدقيقة بين علمي البلاغة والنحو.

---

(١) ينظر: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض – المملكة العربية السعودية، دار الجيل للطباعة، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٠م: ٢٣٢-٢٣٤.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٧ .

(٣) المصدر نفسه: ٨١.

(٤) الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، الجزائر، ٢٠١٢م: ١١.

فعلى العكس من اتجاه الدراسات اللغوية نحو دراسة سلامة الاستعمال الفردي المتغيّر للتراكيب اللغوية الثابتة في أصل الوضع، فإن البلاغة تعنى بخصوصية هذا الاستعمال فيما يحتويه من أبعاد تأثيرية وإقناعية، وكذا بوصفها علماً قائماً على مجموعة من التصورات الاجتماعية للغة، إذ تتعامل البلاغة مع الحدث الكلامي بوصفه نتاجَ المتكلم في سياق اجتماعي معين ((أي وفق نظرية السياق الاجتماعي للغة Context of situation))[١]، وقد درسَ القدماء هذه القضية في باب الخبر عبر مسألة (النفي والإثبات)، فصدق الخبر هو إثبات مطابقته للواقع، وكذبه هو نفي وجوده في الواقع الاجتماعي[٢]، أي أن الواقع الاجتماعي هو الذي يحدد قصدية المتكلم التي تشير إلى ارتباط الاستعمالات البلاغية بالوقائع الاجتماعية للغة؛ فللغة إذن ((وظيفة تصويرية تقريرية تتجه إلى العالم الخارجي، وتحاول رسمه والتعبير عنه. وبالتالي فإن العبارات التي لا تعبر عن الواقع الخارجي، أو التي لا تشير إليه، هي عبارات لا معنى لها، وعلى ذلك فالعبارات ذات المعنى يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة))[٣].

إن تتبع ثنائية اللغة والبلاغة عن طريق تمثل العلاقة الوثيقة التي تجمع بينهما (دراسة النص في سياقاته الاجتماعية) ذو أثر مهم في تأكيد أصالة مفهوم الاتِّصال البلاغي عند العرب، وأحسب إنها الوسيلة التي أوصلت تمّام حسان إلى التقريب بين البلاغة والاتِّصال، وهو الذي يصرح إن البلاغة دخلت إلى موضوعها ((من مدخل

---

(١) دراسات في اللغة والمعاجم، حلمي خليل، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ٢٧٦.

(٢) ينظر: دلائل الاعجاز: ٤١٥-٤١٦، وينظر: التلخيص في علوم البلاغة، القزويني(ت ٧٣٩هـ)، تح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ١٩٣٢م: ٣٨.

(٣) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط١، ٢٠٠٣م: ٣٨.

لغوي ولم تدخل من مدخل النقد الأدبي؛ وذلك على الرغم مما يظنه البلاغيون. ولهذا السبب نجد قضايا البلاغة بفروعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها))[١].

ثالثاً: مفهوم الاتصال البلاغي

عُرفت البلاغة في العصر الحديث بوصفها دراسة لسانية ((تتعلق بـ(كل اللّغة)؛ ذلك انها تنظر إلى اللغة نظرة متكاملة لا يستقل فيها الشكل عن المضمون، ولا المعنى عن ظروف الاتِّصال ومقاصد المتكلمين. وقد بحثَ الدارسون حديث العلاقة بين البلاغة والاتصال؛ انطلاقاً من أن البلاغة من الإبلاغ، وهذا لا يختلف عن مفهوم الاتصال الذي هو إبلاغ أيضا))[٢]، ولعل دراسة محمد بناني الصغير للنظريات العربية فيها إشارة إلى علاقة البلاغة والاتصال، فالبلاغة عنده ((مرادفة لمفهوم التوصيل في اللسانيات الحديثة. [...] فالمتكلم هنا يسعى إلى إبلاغ الكلام إلى المخاطب دون أن تكون له أية نية في استمالته أو التأثير عليه))[٣]، وبذا تكون البلاغة ((فرع على معنى ((الإبلاغ)) أو التوصل الذي هو موضوع من موضوعات علم الاتصال))[٤]، أو الاتِّصال اللساني الذي يأخذ بالحسبان اجتماعية اللغة والبلاغة، فالاجتماعية هي الصفة التي تمتاز بها اللغة انطلاقا من وظيفتها التواصلية، أما البلاغة فتعرف باجتماعيتها بوساطة توظيفها فكرة المطابقة[٥].

---

(١) المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة (بحث): ٢٦.

(٢) في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، خليفة بوجادي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م: ١٥٧.

(٣) النظريات اللسانيّة والبلاغيّة عند العرب، محمد الصغير بناني، دار الحداثة، لبنان – بيروت، ط١، ١٩٨٦م: ٣٣٦.

(٤) المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة (بحث): ٢٧.

(٥) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٩٤م: ٣٣٧، وينظر: البلاغة والاتصال: ١٩.

وقد أشار تمّام حسان إلى أسبقية علماء البلاغة في ملاحظتهم لهذه الخاصية فقال: ((ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة وكذلك يقر بأن البلاغيين في اكتشافهم لفكرة المقام يكونون قد توصلوا لقاعدة لغوية بلاغية ذات أصل اجتماعي تصلح لأن تكون معيارا للبلاغة في كل لغات العالم))[١]، فالمقام هو القاعدة البلاغية التي تقرّب البلاغة من المجتمع بوصفها ((شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها وأن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كلا منها ((مقاما)) .))[٢].

لقد أثبتت محاولة تمّام حسان في تجديد المصطلح مدى اقتراب المعنى اللغوي للبلاغة من مفهوم الاتِّصال؛ فالبلاغة عنده هي: ((عمل المتكلم على إيصال الشفرة إلى السامع بواسطة رسالة منطوقة خلال قناة اتصال مسموعة في مقام معين وربما أضفنا جهد السامع في حل الشفرة))[٣]، وقد عمل تمّام حسان على تنظيم عناصر الاتِّصال البلاغي كل بحسب نظيره الغربي فقابل بين السياق والمقام، والمتكلم والمرسِل، والكلام والرسالة، والسامع والمرسَل إليه، والمشافهة وقناة الاتصال، والمعنى المقصود والشفرة[٤].

وأشارت (موسوعة البلاغة) إلى فاعلية البلاغة في تحقيق الاتِّصال ((ومنذ استخدامها المبكر قبل الإسلام لم تتخل البلاغة أبداً عن احتوائها للأسلوب

---

(١) اللغة االعربية معناها ومبناها: ٢١٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٧.

(٣) المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة (بحث): ٢٧.

(٤) ينظر: الصفحة نفسها.

والمحتوى، ووضوح المخاطبة address وإيجازها بهدف تحقيق أقصى فعالية تواصلية. والجذر اللغوي للبلاغة يتضمن كلا من بلوغ الغاية والتأثير))[١]؛ وقبل أن يتجه الدرس البلاغي نحو منعطفات أخرى كانت البلاغة تمثل حدثاً تخاطبياً، حوارياً، اتصالياً بين طرفين يهدف الأول منهما إلى إبلاغ معنى للتأثير في الثاني؛ وقد اجتمعت آراء القدماء أيضاً على إبراز هذه الخاصية، ومن أهم هذه الآراء قولهم في تحديد البلاغة: ((فكأنك تريد تخير اللفظ، في حسن الإفهام))[٢]، يشير هذا التحديد إلى أن البلاغة تعنى بدراسة خصائص الاستعمال اللغوي[٣] عبرَ عمليتي الاختيار والإفهام، اللتين ترتبطان بعنصري الاتِّصال البلاغي. فضلاً عن ذلك فإن تأكيد نجاح الاتِّصال في قناة الاتِّصال البلاغي تعتمد كفاءة المتكلم التعبيرية التأليفية والمنطقية؛ فعملية إفهام السامع في قول الجاحظ: ((كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ))[٤]، ترتبط بسلامة الأداء اللغوي.

وبذا يتبين أن غاية البلاغة من دراسة قواعد الاستعمال المفيد (المؤثر) تعود إلى عنصر الإبلاغ أو الاتِّصال ((من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلّغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته. فسميت البلاغةُ بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وسميت البلغة بلغة لأنك تتبلغ بها، فتنتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضا))[٥]، وكذا ((إبلاغ المتكلم

---

(١) موسوعة البلاغة، توماس أ. سلوان: ١/١٣٠، ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف ومصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٦م: ١/ ١٣٠.

(٢) البيان والتبيين: ١/١١٤.

(٣) ينظر: التداولية وبحوث أخرى، أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي، بغداد، ٢٠١٥م: ١٨.

(٤) البيان والتبيين: ١/١١٤.

(٥) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر العربي، ١٩٧١م: ١٢.

حاجته بحسن إفهام السامع))[١]، وتعريف الرازي(ت ٦٠٦هـ): ((بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز المخل والاطالة المملة))[٢].

تتحدد إذن أهمية دراسة البلاغة لقواعد الاستعمال في ضوء القدرة الاتِّصالية التي تكشف عنها عمليتي الاختيار والتأليف، إذ ليست الفائدة من دراسة قواعد الاستعمال المؤثر الحكم بإجادة المتكلم، وجودة الكلام، وإنما الغاية من ذلك ضمان القدرة الاتِّصالية على إحداث التأثير في الآخر؛ لأن البلاغة تُعنى بملاحقة خصائص عناصر العملية الإبلاغية جميعاً، من متكلم، وكلام، وسامع، وقناة، وشفرة، ومقام، ويبدو ذلك في بعدين: الأول هو البعد الذي يركز على قواعد الاستعمال بوصف الكلام المرْكز الأساسي الذي تجتمع حوله عناصر الاتِّصال البلاغي، وهي بذلك تعني: ((بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بترقية خواص التركيب حقها))[٣]، والثاني هو البعد الذي يتعامل مع البلاغة على أساس التمييز بين المتكلم، والكلام، فلكل منهما مقوماته الخاصة، أما ((بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته))[٤] وبلاغة المتكلم ((فهي: ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ))[٥].

---

(١) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، إبن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٩٥٥م: ٢٤٢/١.

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، تح: نصر الله حاجي مفتي أوغلى، دار صادر، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٤م: ٣١.

(٣) مفتاح العلوم، السكاكي (ت٦٢٦هـ)، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٧م: ٤١٥.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠٣م: ٢٠.

(٥) المصدر نفسه: ٢١ .

تدور في هذه التعريفات مجموعة كلمات مهمة تسهم في توضيح الترابط بين البلاغة والاتِّصال وهي(اختيار، إبلاغ، حسن إفهام، مطابقة)، فالبلاغة توصف بأنها عملية اختيار هدفها التأثير؛ وعملية الاختيار يقوم بها المتكلم في حين أن الإفهام يتّصل بالطرف الآخر وهو السامع، وقد تسللت دراسة هذه المسوغات إلى المؤلفات المعاصرة في قوانين التخاطب و الحجاج وأهمها دراسة الفيلسوف الأمريكي بول غرايس في مبدأ التعاون (المنطق والمحادثة) الذي سنَّ فيه مجموعة من قواعد التخاطب التي يجب أن يراعيها المتكلم في خطابه كقاعدة الكيف التي تعنى بنوعية المعلومات المتبادلة من ناحية الصدق والكذب (الخبر والإنشاء في البلاغة)، وقاعدة المناسبة أو الملاءمة التي تقابل المقام(١).

إن البلاغة التي تطلب تبليغ المعنى إلى السامع ليفهمه تعني قيامها في ضمن منظومة تواصلية تتطلب وجود أطرافها الثلاثة، مع تأكيدها على ما يلحق بهذه الأطراف من وظائف التعبير، والإفهام. أما المطابقة فهي تأكيد وجود معادلة بين طرفين تواصليين(٢)، والكلام هو الصورة اللفظية التي يرسلها المتكلم إلى السامع، مع مراعاة المتكلم لمقام السامع وهذا ما تقصده عبارة مقتضى الحال، وقد توّجَ تعريف الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) لبلاغة الكلام مفهوم الاتِّصال البلاغي بشموله لمجموعة من مرتكزاته المهمة:

- إنه جعل من المطابقة **(المقام)** العنصر الأهم الذي تشترطه بلاغة الاتِّصال ويراد بها المواءمة بين طرفين(٣)، من المفترض أن يكون الطرف الأول هو **المتكلم،**

---

(١) ينظر: قوانين الخطاب من بول غرايس إلى طه عبد الرحمن – دراسة نقدية – (بحث)، عمر بوقمرة، الجزائر، مجلة أمارات في اللغة والأدب والنقد، مجلد ٥، العدد ٢، ٢٠٢١م: ٤٥.

(٢) ينظر: التداولية وبحوث أخرى: ١٩.

(٣) ينظر: مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، إبراهيم محمد عبد الله الخولي، دار البصائر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م: ٢١.

والطرف الثاني هو **السامع**، وقد ارتبطت فكرة مقتضى الحال بهذا العنصر؛ إذ إن المطابقة وظيفة يجب أن يراعي بوساطتها المتكلم حال السامع.

- **الكلام** هو البؤرة الأساسية التي يجب على الطرف الأول صياغتها بطريقة مؤثرة ومطابقة لحال السامع وهذا هو الشرط الثاني، بحيث يصل إلى قلب السامع فيؤثر فيه.
- والشرط الأخير هو **الفصاحة** فعلى المتكلم أن يكون فصيحا حتى يُفهِم السامع ما سيقول.

وبذا يتأكد لنا أن حضور عناصر الاتِّصال في تحديدات القدماء لمادة البلاغة يعدُّ دليلاً مهماً على أصالة مفهوم الاتِّصال البلاغيّ؛ فالبلاغة ((ليست مجرد أقوال أو كلمات، وإنما هي حدث بلاغي يتضمن أكثر من عنصر يسهم في صناعة الأثر البلاغي، هذه العناصر بعضها في داخل النص، وبعضها خارجه. وهذا يؤكد لنا إن البلاغة تُعدّ فعلاً اتصاليا يتضمن أركان العملية الاتصالية الأساسية (المرسل، والرسالة، والمستقبل)، وإن نجاح هذا الاتصال مرهون بأن تتحقق المهمة المنشودة على أكمل وجه في كل ركن من هذه الأركان الثلاثة. هذا المنظور الاتصالي الذي استحضرته البلاغة منذ ميلادها، دفع بها مؤخراً إلى الانتقال في عدد كثير من الجامعات الأوروبية والأمريكية من أقسام اللغة، والأدب، النقد إلى أقسام الإعلام، والاتصال))[1]، نستدل من ذلك أن عناصر الاتِّصال البلاغي لم تكن آنية الظهور بل تطورت في ضوء مشاريع ومراحل زمنية عديدة، حتى اكتملت الرؤية فكانت أعمال القدماء بمثابة سلسلة تتابعية يكمِّل أحدها الآخر؛ فما نظّر له الجاحظ في البيان عن البيان باللفظ وغير اللفظ، والقائل، والكلام، والسامع، والمقامات، ووظائف الكلام من

(١) المقام البلاغي بين التراث العربي والدراسات البلاغية المعاصرة(بحث)، إبراهيم بن منصور التركي، مجلة فصول، مجلد ٤/٢٦، العدد ١٠٤، ٢٠١٨م: ٢٣٨.

البيان والفهم والافهام، وجدت له امتدادات عديدة في مشاريع متفرقة، فالبلاغة العربية التي نطلبها هي التي وضعها الأوائل أمثال الجاحظ، والعسكري، وابن سنان، وعبد القاهر الجرجاني، لأن أعمال هؤلاء تقدم جوهر البلاغة الحقيقي الذي وضعت من اجله وهو أن النص يكتب ليؤثِّر فهو يُسمع أو يقرأ؛ فعملية السماع أو القراءة يتقدمها شرط التأثر والفرق الوحيد بين أعمالهم يكمن في تنوع الأهداف والتوجهات.

رابعاً: أنواع الاتِّصال البلاغيّ

عرفت الدراسات المعاصرة نوعين من الاتِّصال، اختصَّ الأول باللغة المستخدمة اللفظية وغير اللفظية، على أساس أن الاتِّصال لا يقتصر على اللغة الخطابية وإنما يتعداه إلى وجود لغات أخرى كالتعبير بالإشارة، والصور، والموسيقى... إلخ، وقد درس محمد العبد هذه التقسيمات فحدّد الاتِّصال اللفظي بمعنى ((الاتصال الذي يستخدم العلامات اللغوية وسيطاً له [...] نظم العلامات التي تمكن من نقل المعلومات بمساعدة علامات لفظية))[١]، والاتِّصال غير اللفظي الذي اقترن بوسائل التواصل غير اللفظية ومن هنا أُطلق على هذا النوع ((تسميات عدة منها: الاتصال الجسدي، واللغة الجسدية، والكلام الجسدي))[٢]، أما النوع الثاني فيراعي في التصنيف أعداد المشاركين في العملية التواصلية فيصنف الاتصال إلى ذاتي، وشخصي، وجمعي، وجماهيري، وعام، ووسطي[٣].

النوع الأول: الاتصال بحسب اللغة المستخدمة

وردت في التراث البلاغي إشارات مهمة تدل على معرفتهم بهذه الأنواع؛ إذ جاء تصنيف الجاحظ لها ضمن باب البيان في قوله: ((وجميع أصناف الدلالات على المعنى من لفظ وغير لفظٍ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة،

(١) العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتِّصال:١٥ .

(٢) المصدر نفسه: ١٠٠.

(٣) ينظر: الاتِّصال ونظرياته المعاصرة: ٢٥-٢٩-٣٠ .

Abstract

This study is based on the contemporary vision that considers rhetoric as part of the linguistic sciences, as it represents a linguistic approach that seeks to study the event of speech through the characteristics of the language used, in addition to formulating a specific effective use (literary speech), and it follows that it is based on the speech itself. However, this focus does not preclude the fact that it cares about the communicative contexts that contributed to the emergence of this usage. Thus, rhetorical communication represents the field that confirms the novelty of rhetorical thinking in that it is not limited to the formulation of usage rules (speech), as its attention was comprehensive to all the circumstances and contexts that contributed to its production, including the characteristics of the speaker (the sender), the listener (the addressee), (the addressee), and the position (the reference), then the code, and the channel.

The rhetorical lesson is also distinguished by the multiplicity of entrances, which enabled the researchers to deal with it according to different visions and perceptions between the sciences of language and criticism. In fact, this transitional characteristic made him acquire the ability to develop in different fields of research, each of which goes to addressing the verbal event (discourse) from a specific angle. With the multiplicity of these angles and their diversity between what is outside the borders of the discourse, and what approaches the moment of its production, and then its characteristics, we notice that rhetoric is close to presenting new methodological perceptions represented in its overlap with what is called in the modern lesson (linguistics of communication) that treats the text comprehensively, bearing in mind that Arabic rhetoric

has introduced readers to important features and sayings related to these foundations through purely Arabic terms such as statement, which is the Arabic equivalent of the concept of communication, and the types and elements of statement Therefore, the current study focused on (Rhetorical Communication Theory in the Arabic Lesson) to clarify the origins and extensions of the theory in the studies of ancient and modern scholars.